الأمل : قاطرة الإنسان والإنسانية ! (*)

من المحال أن يعيش الآدمى بغير رجاء يأمله أو يتوقعه أو يتمناه .. فالرجاء " تطلع " ملازم لوعى الآدمى ملازمة لاتفارق حياته، بين " الوعى " و " الحياة " تلازم لايقطع حبله، لأن الحياة تمتد امتدادا مصحوبا بالوعى وما ينحفر فيه ويستهدفه من آمال وتمنيات لأحوال أفضل،لا تقتصر على الحياة الدنيا التى يرجو فيه الآدمى عيشا أهنأ وأفلح وأرصى، بل إلى مايرجوه أيضا من نشور وقيام وبعث بعد الموت يلاقى فيه ثواب ما يعتقد أويأمل أنه قدمه فى دنياه .. حتى المنتحر، لايعدم حبلا - مهما كان ضالا أو واهيا - يربطه بأمل يبلوره لنفسه بالراحة من الحياة الشقية التعسة العابسة التى لم يعد قادرا على مزاولتها واحتمالها ..لايفقد هذا " الأمل " المريض بمرض معضل قاتل، لاينقطع رجاؤه ولا ينطفئ أمله كلية فى تكذيب علم الأطباء والحكماء الذين يقطعون بموته، ولا يأس اليائسين من شفائه .. بل ولاييأس المحكوم عليهم بالإعدام مهما حانت وأوشكت لحظة التنفيذ، وقد وضعتنى المقادير فى مشهد من هذه المشاهد بقيت فيه إلى جوار خمسة مقضى بإعدامهم لم يفقدوا الرجاء لحظة حتى وهم مسوقون إلى غرفة التنفيذ !! .. لايطيق الآدمى أن تنطفئ فيه جذوة الأمل، حتى المقدمون على موت محقق فى عمليات استشهادية يوقنون سلفا أن " الحياة " ماضية فيها إلى ربها .. يستدل الفدائى بالأمل فى الحياة، الأمل فى العطاء للقضية التى آمن بها وضحى بحياته من أجلها، وقد يأمل إلى جوارها فى

---

* الأهرام ٢٠٠٤/٥/٢١ .. وكانت فكرة هذا المقال من وحى أشعار الأستاذ الحليل محمد عدالله محمد ، والحوارات التى لم تنقطع معه أسبوعيا ، وتخوض فى شتى شئون الحياة .

المجد وحسن الأحدوثة وحفر اسمه على جدار الزمن .. لا يفقد الآدمى كل رجاء فى كل اتجاه، إلا إذا أيقن أنه قد سدت أمامه كل الأبواب، وانغلقت كافة المنافذ، هنالك فقط يطحنه القنوط ويمزقه اليأس تمزيقاً تاماً مالم يكن معه بقية من دين !

هذا المعنى العام للأمل، موجود منذ وعى الآدمى وعيه المعروف لنا الآن، وموجود فى كل ما نفعله عامدين أو غير عامدين، بل وفى كل ما أهملناه أو توانينا عن أدائه .. لا يتوقف وجود الأمل على مكانة الآدمى أو رقة حاله أو علمه أو جهله أو ثرائه أو فقره .. الأمل موجود لدى أعلم العلماء، وأيضاً لدى أجهل الجهلاء، من كل جنس أو لون، وفى أى مكان وزمان ! . جميع ما يسمى بالحقائق العلمية ينطوى فى الواقع على آمال - إيجابية أو سلبية - فى مزيد من الجهد والبحث والتدقيق فى الوسائل والتجارب والحساب والرصد والمراقبة، لتعميق أو زيادة أو تقوية هذه الحقائق أو زيادتها وكادة وعمقاً وسعة، فلا حدود لآمال العلوم فى تحقيق المزيد، ولا فى جدوى المراجعة ودقتها، ولا فى العودة إلى فحص الحقائق باستمرار، لأن العلم لايقيم مقدسات ولا يسلم بنهائيات ولا يستبعد شيئاً من الخضوع لإعادة النظر والتصحيح والتطوير !

لا نهاية لميادين العلم والمعرفة، لأنه لا نهاية لآمال الآدمى فى عقله وسعيه، ولانهاية لعقل الآدمى وسعيه لأنه لانهاية لآماله فيما هو أفضل مما بين يديه .. لايتوقف الآدمى عن الأمل، مستقبله هو أمله، وأمله هو مستقبله .. من يدرك " الأمل " ودوره، يدرك أن حياة الآدميين لا تتكرر فى قوالب وأنماط ثابتة إلا إذا انطفأت فى الآدمى جذوة الأمل او انقلبت آماله سلبية محصورة فى إبعاد مايكذب أو يدحض ما معنا من الحاضر، واستبعاد ما يوقظنا إلى ما فى حاضرنا من قصور أو غلط أو تهافت أوخيبة أو انحراف .. فلا شىء أفضل مما نحن فيه، وليس فى الإمكان أبدع مما كان !!!

ربما كان هذا الحبو أوالحفوت ـ ممكنا لقرون عديدة فى الزمن الغابر، فى ظل مجتمعات الصيد والقنص، أو حضارات الرعى والزراعة .. حين كانت رتابة الزراعة جاثمة مطبقة على آفاق الآدميين المادية والمعنوية، مخيمة على وعيهم تعيش غالبيتهم الغالبة وتموت فى هذا الإطار العتيق المحدود فى الرعى أو الزراعة أو فيهما معا .. لم تعد الحال فى زماننا كهذه الحال المتواضعة الخابية، وامتد تيار التغيير شاملا الدول غير المتقدمة إلى جوار الدول المتقدمة، ساحبا معه نموا عريضا فى طموحات وآمال البشر ! .

عالم الآمال، وعالم الواقع !

حياة الآدمى الواعية على هذه الأرض، حياة تتألف دائما من عالمين لاغناء لأحدهما عن الآخر : " عالم الآمال "، وهو عالم أساسى للآدمى يشحنه بوقود الحياة، ويلزمه لاستمرار رغبته فى الحياة، من التفاؤل والاستبشار وحسن الظن وحسن النية، و " عالم الواقع " الخشن الجامد، العابس أو الخالى أحيانا من اللين ومن العواطف، الذى يشعر الآدمى من آن لآخر بضآلته وعجزه وحتمية زواله، وربما صادر على آماله، أو ردها إلى الحدود المعقولة التى توافق ظروف الزمان والمكان وما قد تتأبى به على طموحه وآماله الشخصية ! .. " عالم الأمل " ـ لايعنى الهروب المخدور من الواقع ولا بناء قصور الوهم والخيال فى الهواء، ولا هو أمل العاشقين الذى صاغه بيرم التونسى وغنته أم كلثوم : بالأمل أسهر ليالى، فى الخيال أبنى العلالى .. وإنما هو شعلة تضئ روح الآدمى وتدفعه إلى الأمام والجد فى أنشودة الحياة طلباً للنور والجمال والكمال والحق !

من لطف الله تعالى، أن الأديان بعامة، تخاطب فى الإنسان دوماً ـ وعلى درجات مختلفة ـ " عالم الآمال " .. فتبث فيه الأمل والرجاء، لأن همها الأساسى تنمية الرغبة عنده فى الحياة، وفى المحافظة على البشر والتفاؤل وحسن الظن وحسن النية، وإعانة البشر فى لهيب

وعبوس ورمضاء الظروف والأزمات ـ على الثبات والصبر والعزم في مواجهة ما يصادفهم في عالم الواقع الجامد الخشن من حادثات مخيبة لآمالهم !

لذلك كانت الكتب المقدسة مليئة بما هو جميل ورائع ومؤثر لانتشال إرادة الآدمي من السقوط، وبث البشر والأمل في حناياه، تستخرج له من تراث الماضي ما تم فيه من انتصار الأمل والحياة على قوى اليأس والموت، وتبرز تدخل الرحمة واللطف والعطف والحب والقدرة الغالبة الحيرة المحسة على نوازع وقوى الشر ـ استجابة لدعاء مخلص، أو مكافأة على عمل طيب، أوعلى المثابرة في الإخلاص والإيمان، أو دحضاً لظلم نزل بمظلوم أو يهدد بالنزول به .. مقرون هذا وذاك ببشارات للآملين المتقين الصابرين ـ بحياة هنيئة صافية لا يغيرها ما يعترى عالم الواقع الخشن الجامد من عبوس أو جهامة أوتثبيط !

البشارة بمحبة الله في الكتب المقدسة، موعودة للمؤمنين، المحسنين، المقسطين، المتقين، الصابرين، المطهرين، الصالحين، المتوكلين، المهاجرين إلى الله، المتبعين لشريعته، الصادقين، الباذلين، العاملين .. يخبر القرآن المجيد أن هؤلاء يحببهم الله، ويعدهم بالفلاح في الدنيا والمثوبة في الآخرة .. يبشرهم بأن : " الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرا أملا " (الكهف ٤٦) و " أن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر . " (القمر ٥٤، ٥٥) .. تُزَف إليهم البشارات فتقول فيما تقول : " وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . " (فصلت ٣٠) .. بشارات الكتب المقدسة وبشارات القرآن المجيد لا تقع تحت حصر، وتحمل امداداً هائلة لبعث الرجاء والأمل، وتعمد إلى إرداف هذه البشارات بأى " نذير" أو " وعيد " يستلزمه سياق الخطاب، بل وتجعل البشير سابقا على النذير

(بشيراً ونذيرا)، والمغفرة والتوبة سابقة على العقاب : " غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب " . (غافر /٣) .

ومن الغريب أن بعض رجال الدعوة يتركون فى حطابهم هذه البشارات والآمال المبثوثة فى الكتب المقدسة والوعود بالحياة الهنيئة الصافية والجنة الموعودة للصالحين المتقين، ويقدمون خطابا عابسا متجهما يكاد يصادر على الجانب المشرق المبشر الذى اعتنت به الكتب المقدسة، وتغنت به إقبال المحاطبين على الحياة وعلى العطاء الخصب المجزل الآمن المطمئن الواثق والمفعم بالأمل والرجاء .. ان ترك هذا الجانب، ومحاصرة الكتب المقدسة بعالم الواقع الخشن الجامد وما يحدث فيه ومنه .. ينطوى على " مطالبة " ظالمة غير مشروعة أن تتحلى الأديان عن غايتها وعن مهمتها الأولى فى صيانة عالم الآمال الذى يستحيل أن يعيش أى آدمى خارجه محروما من قوته الدافقة ومعطياته التى تدفع الآدمى دوما نحو طلب الكمال والحق .. عالم الآمال محال أن ينعزل عنه أى آدمى حتى من اشتطوا وألحدوا، فلا غناء لهؤلاء أيضا عن عالم الآمال الذى يربطهم برجاء ربما ينتشلهم - حتى إن لم يريدوا إرادة واعية - من وهدة ما هم فيه من تيه وضياع !!.. ومثلما تنطوى مواجهة الأديان بعالم الواقع الخشن الجامد من مطالبة ظالمة غير مشروعة، فإن ذلك ينسحب أيضا على الاعتراضات التى تدعى على بعض الكتب المقدسة مخالفتها لمقررات العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وفلك وجيولوجيا إلى غير ذلك، لأن هذه العلوم الطبيعية إنما تعمل عملها فى عالم الواقع ولا يمكن أن ترى أو تشتغل إلا بعالم الواقع الخشن الجامد بطاقاته وأجسامه وتركيباته وتفاعلاته وخلوه التام المطلق من أى دور للأمل البشرى !

ظالم أيضا وغير مشروع الاعتراض على العلوم الطبيعية التى لا تشتغل إلا بعالم الواقع الخشن الجامد الخالى تماما من أى دور للأمل

البشرى بأنها تخالف الصور التى تصور فى الكتب المقدسة عالم الواقع الخشن الجامد، لأن واقع هذه الصور يتغير حتما كلما تغيرت وتطورت وتقدمت خبرات الإنسان به وزادت إمكاناته المادية والعقلية فى الرؤية الأكثر صحة ودقة، وهى رؤية واقية على الدوام لواقع حش جامد من أجل مزيد من القدرة على حشونة هذا الواقع والنجاح فى التعامل معه بدراية وكفاية . هذه الرؤية لا تعنى ولا تهتم ولا تبالى ولا تكترث بعالم الآمال ولا بتكريس القدرة على النجاح فى التعامل معه، لأن عالم الآمال فى نظرها عالم " خاص " بالإنسان وحياته الإنسانية الواعية وتعلقه بها ورغبته فى المحافظة عليها وحسن الظن بها وحسن النية فى ممارستها وكلها جوانب لا تهم ولا يكترث لها أو يأبه بها عالم الواقع الخشن الجامد ـ دلك العالم الخالى من العواطف الإنسانية خلوا تاما، بل ويعتبر اقتحامها لميدانه بابا لدحول الخطأ على حسابات لا مكان فيها للأحاسيس أو المشاعر أو العواطف !!

هل يمكن أن نحيا بغير أمل وود ؟!

ابتسامة الرضا العريضة على وجه الطفل، قديمة قدم الإنسانية كلها .. ومع ذلك فإنها ليست مكررة ولا تتكرر قط، لأنها ابتسامة روح نابعة من قلب أخضر تعبر عن أمل وود لروح معينة، ولا ينفر منها أو يعجز عن الإنجذاب إليها ـ إلا حجر أو آدمى جفت روحه وتحجر قلبه .. حَجَّره خوفه أو شهوته أو أنانيته الكثيفة التى لا يمكن أن ترى إلا نفسها ومن هم فى حكم نفسها !!!

مهما تقدمت العلوم، وارتقت الحضارات، وامتلك عالم الواقع مظاهر الرقى والتقدم، وطابت معطياته، فإن نشاط الروح هو الذى يعطى الطعم الحقيقى لحركات البشر، وهو الذى يضمن وجود الجدّة والحدّة، وليس مجرد تغيير الشكل، أو تغير الزمان أو المكان .

الجدّة تصدرها الحياة ذاتها .. لا توجد إلاّ فى الأحياء، ولا توجد قط فى الكون الطبيعى المادى، ولا يستولد الجدة ليفرح ويتعلق ويمحر بها إلا الآدمى !

هل ذلك لأن الحياة طارئة على الكون الطبيعى الأسبق خلقاً وإيجادا كما تقول الكتب المقدسة، وأنه لذلك يشعر الآدميون بأن الكون الطبيعى شىء واقع خارجهم دائما، وأنه على الدوام غريب على "الأنا" و " الذات " و" النفس " ؟! .. هذا السؤال سؤال قديم يطرحه الآدميون على أنفسهم من حقب، وما زالوا رغم هذا بعيدين عن العثور على إجابة صحيحة، لأنهم ما زالوا بعيدين عن أى حوار حقيقى مع الكون الطبيعى يخرجه من سلبيته العنيدة تجاه الآدميين !!

ظن الآدميون أن اختراق الفضاء، باب لهذا الحوار مع الكون الطبيعى، حاولوا ومازالوا يحاولون الاتصال بأحياء واعية قد توجد فى كوكب أو كواكب أخرى، ويرصدون لذلك العلم والعلماء والأجهزة والأموال والإمكانيات، وينفقون الجهود المضنية على غير جدوى أو طائل حتى الآن !

ويبدو أن الآدمى قد اقتنع الآن أنه رغم كل ما حققه وحده، من تقدم فى المعارف والعلوم ـ فإنه لن يستطيع وحده، ومهما امتلك من أدوات المعرفة، أن يزيح الأستار الكثيفة والأسرار التى تحيط بوجوده أصلا وغاية، ولا بمستقبله ـ ولا أن يعلم علما قطعيا بالكون الطبيعى أو بعالمه هو، أو أن يعلم بحقيقة الروابط بين هذين العالمين : عالم الكون، وعالمه الشخصى . وأيهما تطور عن الآخر أو طرأ عليه!

مكتوب على معظمنا أن يعيش حياته كلها قبل أن يفهم شيئا يذكر عن نفسه أو عما يحيط به، لأنه مشغول بمطالب العيش، وليس لديه فرصة للتأمل ومداومة الصبر على هذا التأمل .. لا يصل

الآدمى إلى غايته من الفهم إلا إذا زاوح تأمله بالصبر حتى ينمو فهمه مدة عمره مستعينا فى الوقت نفسه بما حصله وفهمه الآخرون السابقون والحاليون، الأموات والأحياء .. ولا يغيه ذلك كله عن التجربة والمراجعة، واستكمال القصور وتصحيح الخطأ وتغيير المفهوم بمفهوم جديد تحلت له آياته أو علاماته أو أماراته .. يحب العاقل النشطة روحه أن يستمر فى لهثه وراء معرفة الحقيقة التى لايعرف الآدميون منها إلا جوانب وأجزاء ورؤى ونظريات وشذرات متفرقة، لأن الساعين حقيقة اللاهثين فعلا وراء الفهم هم دائما " قلة قليلة "، لا يحدوها إلى هذا إلا قوة " الأمل " وشدة الإصرار والمثابرة المتولدين من هذا الأمل، مع عظم الثقة فى التمسك بهذا " الفهم " وضرورته وتنميته والزيادة المستمرة فيه !

موجات التجزئة !

هل توقف أحد وتأمل موجة " التجزئة " التى اكتسحت ساحة الفهم منذ القرن التاسع عشر، خاصة فى العلوم الطبيعية التى انقسمت إلى فروع والفروع إلى أقسام والأقسام إلى مباحث وهكذا، بما صار معه فهم الباحث مقصورا فقط ـ أو يكاد ! ـ على تخصصه المباشر الذى رصد نفسه له. لا جدال أن هذا قد أفاد فى تعميق المعرفة فى تلك العلوم، ولكنه قطع اتصالها وقطع وشائجها وأوجد علماء مبرزين فى تخصصاتهم، ولكنهم يعرفون " رقعة محدودة " جدا من المعرفة، شديدة العمق والتخصص، ولكن لا يستفيد منها المتأمل الذى يريد فهم من أين وإلى أين وهل لنا دور خاص أو عام، أو ليس لنا دور على الإطلاق شأننا شأن غيرنا من الكائنات توجد وتزول، دون أن تتعير الموازين بوجودها أو بزوالها!!

فى ديوانه العارف يقول الشاعر المفكر العملاق محمد عبد الله محمد :

مهما تفكرت لم تدرك سوى صلةٍ
ما بين فعلٍ وفعل خلفها فعلُ
لقد جلوت كثيرا هل ترى أحداً
إن الخفاء كثيف حول ما نجلو

أما جمهور الآدميين الذى يكاد عدده الآن يغطى المسكونة فلا يعى ولايحتاج للفهم الذى هو ثمرة التأمل، لأنه لا يعرف التأمل ولا يفتقده.. وهذا الجمهور العريض هو الذى يبنى الجماعات فعلا وواقعا، ويفرز الحكام والمحكومين، ومن أجله توجد السياسات والأنظمة والإدارات والمرافق والصناعات والتجارات والزراعات. هذا الجمهور العريض مشغول دائما بمشاغله العامة والخاصة على تعدد فروعها وصورها وأشكالها، منصرف عن التأمل بشواغله التى لا تنقطع سواء بالدولة أو الاقتصاد أو الأسرة أو العمالة أو الأصدقاء أو التعليم أو الرياضه أو اللهو أو الأحداث العالمية والمحلية، والدوران فى كل هذه الدوائر عرضى موقوت دائما ما يزول أو يتماحى أو تتباعد صوره دون أن يحفر فى صفحة الوعى والفهم شيئا باقيا !

والسؤال الذى يجب أن يسأله الإنسان العاقل هو : هل هذه الحال المتفاقمة، يمكن أن تصحح نفسها تلقائيا ؟ وكيف ؟! كيف تعود إلى الفهم - البلايين من البشر التى خمدت أرواحها بفقدان الأمل، وألفت عدم القدرة على التأمل لنشدان الفهم والتمسك به وإعطائه حقه من الرؤية والتثبت والمثابرة ؟ .. " الأمل " و " الرجاء " هما محرك وقاطرة البشرية .. بغير الأمل والرجاء يسبح الآدمى ويخبط تائها ضائعا فى هذا الكون المعجز للأفهام !